محمد علي شمس الدين

الضحك السريالي *

● لكل رفض سريالي للعالم منطقه الخاص ، كما أن لكل حادث انتحار منطقه الداخلي الخاص ، كما يقول الفاريز (١) . من هنا يقترب شعر الرفض السريالي من حادثة انتحار شخصية ، وهو مبرر نفسيا ، او وجوديا ، رغم اعتباره شذوذا مرضيا وفق المقاييس المنطقية العاقلة . اذ انه دخول في دائرة الجنون والخوف ... وسباحة ضد تيار المالوف ومقاييسه .

انه « برزخ فيه قبر العقل وقبور الاشياء » .. (٢) كما يقول النفري ... حيث « الطريق يمر وسط غابات الرموز . وهذه الغابات ليست على وجه الارض ، لنشق فيها سبلنا . انها تحت الارض ، في اعماق كل واحد منا ... » « فيكون المعنى خارجا عن مقصد القائل ، كامنا في اللاوعي ... » (٣)

ولعل اندريه بريتون ، حين اراد ان يخرج في بيانه السريالي الاول سنة ١٩٢٤ ، من حدود « حراسة المنطق » ،معتبرا ان «العمليات المنطقية لا ترتبط الا بحل مشاكل ذات اهمية ثانوية » (٤) ... كان يطأ ارضا عجائبية ، « مستردا حقوق المخيلة » . محركا قوى اللاوعي في الذات الانسانية ، ومثيرا قوى العمق .

ها نحن ، اذن ، داخل عالم تختلط فيه الحواس بالمحسوسات بالوظائف بالالوان بالمعقولات ... امام اشتباك هذياني عذب للاشياء والظلال ، او نافورة افكار ملونة ، وتداعيات ورؤى وكوابيس ، لا نهائية التشكل والتناسل .

وليس الشعر العربي بعيدا عن هذا العالم ، رغم اختلاف الدوافع واشكال التعبير وغائيتها ، منذ الرؤى القرآنية العجيبة ، مرورا بتهويمات الصوفية وشطحاتهم ، وصولا الى السريالية المحدثة .

وهو (اي الشعر العربي) ، منذ منعطفه التاريخي في بداية الخمسينات ، حتى صعاليك الشعر المعاصر في اخر نماذجه لدى فاضل العزاوي ، وسليم بركات ، وبعض الشعراء الشباب (في العراق وسوريا وجنوبي لبنان) ... يميل لدى البعض ، الى اتخاذ السريالية اكثر من مناخ للتعبير ، او سديم تدور وتتحرك فيه العمليات الشعرية ... انه يميل الى جعل السريالية ، موقفا ، وطريقة تعامل مع الذات ومع العالم .. وهذا موقف خطر في دوافعه واغترابه ومراميه، ارجو ، في مداخلتي هذه ، ان اسلط عليه الضوء والاشارة .

● الياس لحود ، في مجموعته « فكاهيات بلباس الميدان » هو واحد من هؤلاء الشعراء الصعاليك الجدد .

في اي هواء يقف هذا الشاعر ؟
وعلام يريد لنا الموت ضحكا ؟

عليك ، اولا ، ان تخلع قفازيك ، وثيابك النظيفة ، حين تدخل الى حظيرة هذا الشاعر . فهو ملوث بالعالم .

« ... تسبح الذبابة الحمراء في شوربة الغلاف
يسلح الدوري فوق ساعتي » .

وهو قذر ، ايضا (هل انا بحاجة للاستدراك التالي : لا شأن للاخلاقيات في كلامي على الشاعر ـ الذي امزج بينه وبين نماذجه ورؤاه وتهويماته ؟)

ـ قذر ايضا ، وتعديك قذارته :

« ... يهاجمني جوع اطرش ...
يدفشني اسقط في مجرور المشروع الاخضر
... اخرج من مشروع المجرور الاخضر
امسح اوساخي بمناشف حلاق الافكار
واحني وجهي في انفاس الجبانة ...
يهرب مني عمال التنظيفات
أكداس الزبالة على كل مفرق ... » .

وليس الياس لحود متفردا في هذا التلوث ، اذ ان هناك موجة من شعر الفتيان ، برزت ، تحت ستار الرفض والثورة ، في انحاء مختلفة من العالم ، في ظروف تاريخية واجتماعية ضاغطة ، غالبا ما تكون اثر حروب وانكسارات ، او نتيجة استلاب آلي او صناعي (جون اوزبرن وشعراء الغضب في انكلترا)،خصوصا بعد سنة ١٨٣٠ والعصر الصناعي ، حيث برزت ظاهرة الاغتراب او التاليف (Aliénation) وحيث يكون رفض القيم والعادات واساليب التعبير السائدة ، هو المميز المشترك لهذه النماذج ، وذلك باقتحام مناطق نافرة ، جارحة ،

(*) قراءة نقدية لمجموعة (فكاهيات بلباس الميدان) للشاعرالياس لحود ، الصادرة عن دار الاداب نيسان ١٩٧٤ .

(١) الفاريز : الانتحار : مجلة الفكر المعاصر العدد الثاني السنة الاولى حزيران تموز ٧٤ .

(٢) النفري : كتاب (مواقف المواقف) تحقيق الاب بولس نويا .

(٣) الدكتور الاب بولس نويا اليسوعي : بين حكمة التجربة وجنون الكلمات : ملحق النهار ٧٤/٦/٩ .

(٤) البيان السريالي الاول : اندريه بريتون ١٩٢٤ : ترجمة مجلة شعر ٦٥ العدد ٢ حزيران ١٩٦٩ .

وغير مألوفة في السلوك والتعبير (صدر الدين الماغوط يستعمل في قصائده الدمامل والبق والقمل ... كما كان يستعمل الشاعر الغربي ريتشارد هولز نبك مثانة الخنزير الصودا ، اللحم المملح ، الاصوات العشوائية ... الخ) (٥)

الياس لحود ، اذن ، في هذا الاطار ، ملوث ، وقذر الحال والذاكرة . فهو « يجرجر ذاكرته » ، ويسحب فيها « جثث الحركات »، تارة ، وتارة « يعبط ذاكرته » او « يتسلق حائط احلامه الملساء » ، وهو دائما ضد هذه الذاكرة ... انه عدوها ومضطهدها ، وبائل عليها ...

ف (من) هي .. هذه الذاكرة ؟
انها ذاكرة « القواميس » .. وهو قاتلها ...

ذاكرة التراث المحنط في متحف التاريخ ، لا ذاكرة التواصل الابداعي المتحرك .

« ... غجري يطعن بالالف قواميسا اربعة كبرى
غجري يقتل اربعة
ليفوز بأربع زوجات
في عصر الحاء
الراء
الباء ... »
« تلقي القبض على (أل) التعريف
تضرب قاعدة الهمزة بالشاقوف
وتهرب في نقط القاموس
فيطعنك الطاووس بخنجر ... » .

وهي ، بالتالي ، ذاكرة القول الساقط ، امام انعدام الفعل الناهض . الموقف هنا ، وان اختلفت الصيغة ، وتوهج الشاعرية ، حاضر في مواقف الشعراء :

عبد الوهاب البياتي : طحنتنا في مقاهي الشرق حرب الكلمات .
ادونيس : الف اول الحروف .. انقرض ... انقرض .
نزار قباني : هوامش على دفتر النكسة .
محمود درويش : وتكتب صاد .. ضاد .. عين .. كاف .
هدير المحيطات فيها ... ولا شيء فيها ...

انه الانقضاض على اللغة ، في كونها بنية اجتماعية متخلفة ، والنفاذ عبر ذلك ، للانقضاض على مجموع البنى المتخلفة في المجتمع، بغية تدميرها .

كل ذلك ، في اطار من الرؤى المفككة ، والتناسل العشوائي المختل للصور والحالات والكلمات :

« ... اهزهز جسدي في اثوابي
... انطنط في افكاري » ...
عبر مخيلة دون ضوابط :
« ... هتف الجسد امامي
دخل القلب اليه بخطوات متزنة
هبط الرأس على كتفيه بصوت مظلة
... اللبل بربي في قاووش العقرب غربانا ... الخ
او عبر هذيانيات راقصة :
« ... عقربان يمشيان في النعاس في المصانع
الخراب واحة عاشقة زهيرة على القطار
دوحة المعرض جبهتي الخريطة الجديدة
المدينة الجديدة ... »

---

(٥) عن مقال لايمن ابو الشعر (شعر الشباب) : مجلة الموقف الادبي العدد ٢ حزيران ٧٤ .

او عبر كلمات مجانية :
« ... نعللك بعض (التوست) ..
... فراؤك في صالون الشرف ولحمك في الفوتاي
اتعدي في جاط الموز
الهورس شو ... الخ ... » .

● عقدة الذنب والسقوط في تعذيب الذات وتحقيرها

وهي سمة بارزة في الديوان ، تكاد تطبع كل قصائده ، وتتخذ اشكالا متفاوتة عبر (كلمات ــ مفاتيح) ، هي في الواقع ، مفاتيح لحالات نفسية ، يعاني منها الشاعر ، بسبب ضواغط اجتماعية او موانع طبقية مضطهدة .

فالشاعر (جائع) . « ... امضغ حزني وابتلع الذكريات
واشرب كوبين من عرق الجبهة » .

لكن جوعه ، لا يشبعه سوى « ضرب الاحذية » :
« .. اشبعني ضرب الاحذية المنصبة
فوق قفاي ووجهي » .
وهو (مذنب) دائما ... لماذا ؟
(مذنب) يستحق :

ــ الصفع بالحذاء : « .. احزاني العائدة من الحرب الوهمية
تصفعني بحذاء الحرب اليابس » .
ــ او الرفس : « .. اراقب نفسي على اعين الناس
اعلو .. واهبط ... اهبط .. اهبط
يرفسني القاعدون
تدحرج ذاكرتي من رصيف ... الى .... »
ــ او اقصى حالات التعذيب والقتل :

« ... واسأل عن عزلي الجالسين على اعين الارصفة
فيحدودبون ...
واعبر كل زمان المدينة احكم بالموت نفسي
وآتي الى المقصلة ... » .

نجد ، استقراء ، ان كلمة (حذاء) هي مفتاح لحالة التحقير الذاتي لدى الشاعر . وهي تتكرر في اكثر من قصيدة ، عبر اكثر من صورة :

« الرجل الرابعة امامي في صحن الشوربة
تقوم على مهل تضربني .. تضربني »
... ادخل في كونشرتو حذائي
... انزح في اشلاء حذائي
... ارحل في حذائي
... اهبط في حذائي ... اسهر في حذائي
... الهث في حذائي .. انام في حذائي .. »

يضاف اليها ، مفتاح تحقير اخر ، هو (الحمار) . فانه ، لا يضاهي الصور (الحذائية) في المجموعة ، الا الصور (الحمارية) .. امثلة :

« .. الصفحة الرابعة من مذكرات حمار
... الصفحة الثانية من مذكرات حمار

... المخلاة جناح البحر ــ مخلاتك في اسطبل الثورة وشعيرك في است الطحان ، واجمل ما يشغل بالك ان يتدندل منك الشرف لبضع دقائق ... وتزم على نفسك تبعث من جوفك قافية الاجداد وتطلق شنهقة تعبر فيها من اجيال المسخ الى ساعات البعث الى ثانية الرفس ... فمك العذب شعير شفتاك مخلاتان .. وفخذاك قنطرة من عهد الرومان ...

انكرت المخلاة الفكرية .. اشبعت الاسطبل شتائم .. اتخمت الايام لبيطا ... الايام الاسطبلية .. وعلى شوك حزيران غمرت حمارة سائسنا ... الخ » .

لماذا ، اذن ، يكون (الحذاء)/ و (الحمار) بؤرتي اسقاط فني لدى الشاعر ، لاحساس نفسي بالدونية والضآلة ؟

لماذا الحذاء ، وليس قفاز اليد او القبعة ، مثلا ؟

ولماذا الحمار ، وليس الاسد ؟

هل لان الحذاء دوني ، سفلي ، في طبقات اللباس ؟

وان الحمار ضعيف محافظ على كلاسيكيته ؟ . والشاعر لا يتواجه مع الاسد لانه مصدوم بقوته الجسدية ؟

هل نحن هنا امام ترهات وسفاسف شعرية ؟ ام نحن امام الشعر ؟

هل ان سخرية الشاعر ، هنا ، سخرية مسطحة ولا مسؤولة ، ام انها سخرية مرة وعميقة وقاطعة ؟

وهل تراني احس هنا ، بمثل احساسي العميق والاشد ايغالا في النفس البشرية ، امام مفارقة صلاح عبد الصبور ، حيث يقول :

« ... هذا زمن الحق الضائع
لا يعرف فيه مقتول من قاتله ومتى قتله
ورؤوس الناس على جثث الحيوانات
ورؤوس الحيوانات على جثث الناس
فتحسس رأسك
فتحسس رأسك .. » .

هل ... وهل ... ؟ وليعذرني الصديق الشاعر لو ابقيت اسئلتي هنا معلقة .

● اعادة تركيب العالم ... بتشويهه

صور التشويه في المجموعة ، كثيرة ومتلاحقة : فالزمن اعرج ، والافق واجف، حتى (الغربة) ... وهي الد حالات الغيبوبة الشعرية المألوفة ، برومانسيتها الانسحابية ، او بوجوديتها الحساسة ، حتى الغربة ينبت لها في كلام الشاعر (مصران) ... ويمر الناس في هذا المصران :

« ... نبصق فوق الحائط
نمر الواحد تلو الاخر
في مصران الغربة ... » .

هنا حالة من حالات التشويه ، تصل الى حد المسخ .

هل استطيع ان اشبه هذه الحالات ، بحالات كافكا السوداوية، حيث يتحول الانسان الى صرصار ؟

هل استطيع ؟

هل وصل صديقي الشاعر الى تلك المرحلة من مفارقات الموقف او الشخصية ، التي يستطيع ان يلتقطها ، ثم يتعالى عليها ويتجاوزها، بعد ان يعدي الحالة الى المتلقي ... ؟

انني اشعر لدى قراءة كافكا بحالة من الرعب او السوداوية تتلبسني ، ولا استطيع الفكاك منها ...

فهل استطاع الياس لحود ؟ ... اشك ...

ان ظاهرة رفض الخارج ، بتشويهه ، او الخروج على المتآلف منه ، تبرز في نموذج طريف للشاعر ، من قصيدته : « اختراق منع التجول » .

« ... تمثال الشهداء يتبول على الاعشاب العمياء وعلى الاسماء المقتربة .

... بين رأسي واكياس الرمل كلب يرفع فخذه .. » .

حالة الشاعر ، هنا ، او صورته ، تبدو وكأنها منقولة نقلا حيا عن حالة الشاعر الدادائي الفرنسي (جان بيير دوبريه) حين بال بالفعل ، لا بالقول ، على شعلة تمثال يرمز الى ضحايا الحرب في باريس ، فأطفأها ... « واذا كانت المفارقة سهلة يومذاك ، بين ما كان يفعله لينين ورفاقه في زوريخ في نفس الوقت ، اذ كانوا يخططون للثورة ... والمنطقة العامة تعاني الى حد كبير من الاحساس ذاته بالاضطهاد والقهر ، وبين ما كان يفعله الشاعر (جان بيير دوبريه) » (٦) ... فان المفارقة تبقى حاضرة وجارحة ، بين نموذج الشاعر لحود ، وبين ما يفعله ابطال عملية (كريات شمونة) او (معالوت) الفلسطينيون ، او ما فعله الشهيد (حسن الحايك) شهيد حركة عمال التبغ في جنوبي لبنان ، او العامل الشهيد (يوسف العطار) ضحية تحرك عمال معمل غندور في لبنان ...

اذ انه ، من المفهوم جدا ان الدوافع الموضوعية والذاتية للشاعر، اي الدوافع التاريخية ـ الاجتماعية ـ النفسية ـ الذهنية / هي التي تشكل مواقفه واحاسيسه واشكال تعبيره وسلوكه . لكن المهم هو ماهية هذا الموقف (من ضمن اطار الشعر) ـ ماهية هذا الاحساس ...

هل هو انسحابي .. اغترابي ؟

ام انه منقحم .. ناهض مع حركة المجتمع والتاريخ !.

اذ ، يبدو ان الشاعر الياس لحود ، ما زال مسكونا بغيوم حزيرانية ، مصدوما بهزائم نظامية ... وهو يشعر انه (انسان ممنوع) .. ممنوع في الليل والنهار

« ـ تخلق ممنوعات ربك لا يعرفها

زعموا ان الممنوعات اختلفت حتى انقسمت حتى ابتدات حربا حتى انتصرت في احلام اليقظة ... ثم انهزمت فخبلنا ... وخجلنا ... » .

وهو معذب بالاشواق الممنوعة ، يساكن وطنا يراه عاريا جائعا ممزقا ...

هذا هو الاحساس الذاتي لالياس لحود . مع ان الرصد الواعي لحركة التاريخ العربي لا يصدم ويحبط ، بمقدار ما يتحرر ويثور . مع التحركات الشعبية الثائرة .. على امتداد الرقعة العربية .

هناك ممنوعات لا شك ، لكن ، هناك خرق لمنع التجول ، ايضا .

وان التاريخ العربي ليس بالطبع سلسلة انتصارات ، بمقدار ما هو توالي هزائم ، لكن ، على امتداد هذه الرقعة السوداء ، ثمة نقاط مضيئة تبرز في العتمة ، وتمكن رؤيتها اذا غير الانسان زاوية الرؤية ...

هنا اصل الى سؤال اعتبره محرك هذه الدراسة :

ماذا وراء كل هذا الضحك والبكاء والحزن والقلق والمسخ والرؤى الآسرة المفجعة المفرقة ؟ في آن ؟

ما هو الموقف ؟ اذ يمكنك ان تسخر من اية قيمة ... من اي اله او اي انسان ، دون موقف ...

اعتقد ان الشاعر لم يصل بعد الى وضوح الرؤية ، وان كان يتلمس اطرافها وبشائرها .

لكنه مع كل ذلك ، طريف ، ومتفرد .

بيروت

---

(٦) المصدر السابق .